الوصـــــــف :

الوصف : من الفنون البارزة التي برع فيها الشعراء الجاهليون ، فقد نظروا في الطبيعة الصحراوية ودققوا النظر، فوصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم ، وصفوا الطبيعة ممثلة في حيوانها ورياضها ونباتها وديارها وأطلالها ، وتأملوا في أمطارها وسحبها وبرقها ونجومها وكواكبها ونورها وظلامها فرسموا من ذلك لوحات ناطقة بالفن الأصيل وقد اعتنوا بكل صغيرة وكبيرة من مشاهد الصحراء ومنظر الحاضرة ومجالسها وأزيائها ، ولم يتركوا شيئاً من ذلك إلا سجلوه في شعرهم .

أنواعـــــه :

١. الوصف المادي : وهو الوصف الذي يكون طرفاه حسيين ماديين ، وإن فضيلة الشاعر فيه تقوم على التقاط وجه الشبه الحسي بين ظاهرتين مختلفتين ، وهذا النوع من الوصف هو الغالب على الشعر الجاهلي ، فامرؤ القيس مثلاً عندما أراد أن يصف ساقيْ فرسه بالصلابة والقصر تراءت له ساقا النعامة في صلابتهما وقصرهما فشبههما بهما ، بالرغم من أن الحيوانين مختلفان ، فالشاعر في هذا الوصف يحاول أن يؤلف بين المختلفات لوجود علاقة شبه أو وجه شبه بينها والشاعر الحاذق هو الذي يمتلك القدرة الفنية الكبيرة على اكتشاف العلاقات الدقيقة بين الأشياء في الطبيعة ، فيحاول أن يؤلف بين الأشياء المختلفة التي يلتقطها من بيئته ومحيطه الخارجي ، ليستنبط منها علاقات جديدة ومن ثم يقدمها كخبرة جمالية بالأشياء للمتلقي ، يقول امرؤ القيس في وصف فرسه :

مكرٍ مفرٍ ، مقبل مدبر معـــــاً — كجلمود صخر حطّه السيلُ من علِ
كميْت يزل اللبدُ عن حال متنــهِ — كما زّلت الصــفواء بالمتنـــزّلِ
على الذيْل جيّاش كأن اهتزامــه — اذا جاش فيه حميُه ، غليّ مِرجَــلِ
له أيطلا ظبي ، وساقا نعامـــةٍ — وإرخاءُ سرحانٍ ، وتقريب تتْفَـــلِ

ويندرج ضمن هذا النوع من الوصف لون من الوصف يكون فيه الطرف الأول صورة ذهنية ، أو حالة نفسية ، في حين يمثل الطرف الثاني مشهداً حسياً ، يجسد فيه الشاعر الفكرة الذهنية أو الحالة النفسية ، فالكرم فكرة ذهنية حاول النابغة الذبياني في معرض مديحه واعتذاره للنعمان بن المنذر ، أن يجسدها في مشهد حسي يتمثل في صورة الفرات الهائج ، وهي صورة استطاع أن يخلّدها في ذاكرة الأجيال ، إذ يقول :

فما الفرات إذا جاشت غواربــه — ترمي أواذيّهُ العبرين بالزبـــدِ
يمدّهُ كلُّ وادٍ مُزبدٍ لجـــــــبٍ — فيه حطامُ من الينبوت والخَضد
يظلّ من خوفهِ الملاّح معتصماً — بالخيرزانة بعد الأينِ والنجـــدِ
يوماً بأجود منه سيبُ نافلـــةٍ — ولايحول عطاءُ اليوم ،دون غدِ

كما حاول امرؤ القيس ، أن يجسد توتره وتأزمه النفسي في ثلاث صور حسية فتارة يجسد هذا التوتر النفسي ، بصورة الموج وأهواله وديمومته ، وتارة أخرى بصورة الجمل الضخم الذي أردف أعجازه وناء بكلكله ، وكأنه يعلن عن بقائه وعدم رغبته في الرحيل ، وتارة ثالثة ، بصورة النجوم التي توقفت عن المسير وكأنها قد ربطت بحبال محكمة الفتل الى هذه الصخور الضخمة الثابتة. وكل هذه الصور تعكس هذا التوتر النفسي الذي كان يطبق على الشاعر إذ يقول :

وليل كموج البحر أرخى سدولـه — عليّ ، بأنواع الهموم ليبتلـــي
فقلت له لما تمطـــىّ بصلبـــهِ — وأردف أعجازاً وناء بكلكـــلِ

ألا أيها الليل الطويل ألا انجـــل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليـــل كأن نجومـــه بكل مغار الفتل ، شدُدت بيذبُـلِ

٢. الوصف الوجداني : هو ذلك النوع الذي يتخطى فيه الشاعر حدود الظاهرة التي يصف ، فالشاعر في هذا النوع من الوصف يتحّول من الظاهرة الى ما ورائها أو ما حولها ، محاولاً أن يستطلع منها أو أن يفسرّها حتى تغدو رمزاً أو شبيهاً بالرمز . وهكذا فإن المشهد ينتقل من حواس الشاعر الى نفسه ، الى ضميره بصورة إنسانية حية تتحد به أو تنحل فيه ، وتتّخذ منه وجوداً أو مفهوماً شعرياً جديداً . وهذا النوع من الوصف أرقى من الوصف المادي لان الظاهرة المادية التي تشخص بشكلها العملي المقرر، هي الظاهرة الأقل أهمية وجدوى كذلك فإن هذا النوع من الوصف تغلب علية النزعة النفسية ، إذ يفيض بذات الشاعر على الأشياء حتى تطالعنا بأحداق وملامح إنسانية تضحك وتبكي ، تطرب وتشقي ، تتناجى وتشتكي ، تعاني وطأة الوجود وتغتبط به فكأنها إنسان متكامل سويّ ، أو كأن الشاعر يصف ذاته من خلال الأشياء .

من ذلك قول المثقبّ العبدي واصفاً ناقته :

إذا ما قمتُ أرحلها بليـــلٍ تأوّه آهة الرجل الحزيـنِ
تقول إذا درأتُ لها وضيني أهذا دينهُ أبداً ودينـــــي
أكلّ الدهرِ حلّ وارتحـــال أما يبقى عليّ وما يقينـي

خصائص الوصف :

١. **غلبة الطابع الحسي :** يلاحظ في الوصف الجاهلي إنّ طرفيْ الوصف في الغالب حسيّان ، والعين أكثر الحواس عملاً في هذا الوصف ، وأكثرها قدرة على نقلة من الطبيعة الى الشعر، لذلك كثرت فيه الصور البصرية وطغت على سواها ، وعُني الشعراء بتركيبها وتحريكها ، كما تجلىّ ذلك واضحاً في وصف امرئ القيس لفرسه ، ثم جاءت الحواس الأخرى كاللمس ، والسمع ، والشم ، والذوق في المرتبة الثانية .
٢. **الإحاطة والاستقصاء :** إن الشاعر الجاهلي كان يحيط بالصورة إحاطة تامة ، فهو يستحضر دقائقها ، ويحصر أطرافها ، ويستقصي جوانبها مع دقة في التعبير ومهارة وحذق وروية وإجالة نظر في رصد الأشياء في الطبيعة .
٣. **الدقة في الوصف :** يحاول الشاعر الجاهلي أن يقابل بين الأشياء في الطبيعة مقابلة تصل الى درجة تقارب هذه الأشياء مع بعضها البعض تقارباً شديداً تُدنْي بها الى حال الاتحاد بمعنى أن المشبه يقترب اقتراباً شديداً من المشبه به حتى يخيّل للملتقى إنهما متحدان كما يضفي على الوصف دقة متناهية ، وهذا ما يتوخاه الشاعر في وصفه .

٤.التجسيد أو التجسيم : وهو تجسد المعنى أو تجسيمه ، أي التعبير عن الفكرة المجردة بأشياء حسية يلتقطها الشاعر من واقعه ومن بيئته ، فزهير بن أبي سلمى جعل الموت ــ وهو مفهوم مجرد ـــ ناقة عمياء تسير على غير هدىً فمن وقعت عليه قضى :

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصبْ تُمتهْ ، ومن تخطئ يعمّر فيهرمِ

٥. الارتكاز على تقنية التشبيه في تشكيل الصور الشعرية.